راحيل امام الله

اسطورة

للكاتب النمساوي ستيفان زويج[1]

نقلها الى العربية : صديق شيبوب

قصة زوج « راحيل » من « يعقوب » كما وردت في التوراة معروفة وهي أنه لما أضمر « عيسو » الشر لأخيه يعقوب لأنه أخذ منه حقوق الكبرية بصفقة عدس ومكر بأبيه « اسحق » فأعطى ابنه عيسو فباركه . وما ان جاءت أمه « رفقة » تعلمه بمكر أخيه فأرسلته الى شقيقها « لابان » حيث علق قلب « راحيل » صغيرة ابنة خاله وكانت حسنة الصورة شهية المنظر . فلما خاله سبع سنوات على ان يزوجه بها ، ولكن لابان خدع يعقوب فأدخل عليه مساء الزواج « ليا » كبيرة ابنيه ، وكانت عيناها ضعيفتين . فلما أصبح يعقوب احتج لدى خاله ، فوعده انه هو خدمة سبع سنوات اخرى . ان يزوجه راحيل وهكذا كان

وقد نسج الكاتب النمساوي المعروف « ستيفان زويج » أسطورة بناها على رواية التوراة رأينا ان ننقلها الى العربية عن الترجمة الفرنسية للسيدة الانسانية التي تنطوي عليها والوصف الجميل الذي حوته

(1) Stefan Zweig : Rachel contre Dieu (Légende)

عاد شعب أورشليم المتمنت المنقلب من جديد الى تنامي التحالف الذي اقسم على احترامه كما عاد من جديد الى ذبح القرابين للأصنام النحاسية المجلوبة من « صور » و « عمون » ولم يكفه ان أقام الهياكل وحرق البخور لآلهة مزيفة ، فوضع « البعل » في بيت الله الخاص ، في الهيكل الذي بناه خادمهُ سليمان والذي دنستهُ دماء الذبائح الخاطئة ودخانها المتصاعد

عند ما رأى الملائكة يسخرون منه في هيكله المقدس استشاط غضباً فمد يده اليمنى فاهتزت السموات طويلاً لصوته ، ذلك أنهُ كان قد نفد صبره واستقر رأيهُ على ان يقضي على المدينة التي تمرغت في حمأة الخطايا وان يثور ساكنها كما يثور الزوان في أنحاء العالم الواسع . فدوّى قضاؤه كالرعد القاصف من أقاصي اللانهاية الى أقاصيها

ارتعشت الأرض والسماء خوفاً من غضب الله ، وأمست الأنهار في الحرب ، وانحنت البحار وتمايلت الجبال كما يتمايل السكارى ، وحنت الصخور رؤوسها ، وسقطت العصافير صرعى على وجه الأرض ، وأخفت الملائكة رؤوسها تحت أجنحتها الواسعة . والملائكة تجهل الألم ولكنها لا تستطيع احتمال منظر الغضب ماثلاً في عيني الله . وكانت رعدة صوته قد اخترقت الآذان كأنها حراب

لم يبق على وجه البسيطة سوى أهل المدينة المقضي عليها ، فقد ضربوا على آذانهم بالصمم وظلوا يجهلون قضاءه عليهم . الا انهم شعروا فجأة بان الارض تزلزل ، وان ضياء الشمس قد خبا وسط النهار ، وان عاصفة شديدة قد قامت فاقتلعت أشجار الأرز وحطمتها كما تحطم العواد من القش ، وجعلت الغابات تلتف على نفسها كأنها حيوانات صغيرة ، ولم تلبث الغيوم ان جاءت محمولة على أجنحة الرياح فغطت وجه السماء بنقاب قاتم . وكان البرق مخيفاً على رؤوس الكثرة بينما الأرض تميد تحت أقدامهم كأنها صارت مياهاً

فاستولى عليهم الذعر واندفعوا الى خارج تسابقهم محاولة أن تهار السطوح على رؤوسهم وازدادوا خوفاً وذعراً حين رفعوا أبصارهم الى السماء لان الغيوم المتجمعة فيها كانت أشد تهديداً من الصخور ، وكان الهواء المحرق يترك في أفواههم طعم الكبريت . وحينما أخذوا يرتمون تيأساً ، كما يفعل المجانين ، ويذرون الرماد على رؤوسهم . وحينما أخذوا يرتمون على الارض متضرعين الى الرب العزيز القدير يسأله الصفح والمغفرة . ولكن نداءهم ذهب سدى لان الغيوم كانت تشتد تلبداً وتملأ كل سماء بجلب الثور للبلاد

ظهر غضب الله تعالى شديداً قوياً فاستيقظ الأموات من رقادهم ، وخرجت أرواح الراحلين من سباتها العميق لانهُ اذا كان للوثني لا يرون وجه الله فلي استطاعتهم أن يسمعوا صوت النفخ في الصور يوم القيامة وان يتبينوه . وهكذا فانهم انتصبوا وقوفاً في قبورهم ، وخرجوا من الأرض التي كانوا مدفونين فيها ، واجتمعت أرواح الآباء والأجداد فكان صوت حفيف

أجنحتها كصوت الطيور التي تقاوم عاصفة شديدة ، وتقدموا الى الله ضارعين بأن يرد نقمته عن أبنائهم وبيوتهم والمدينة المقدسة . واستشهد ابراهيم واسحق ويعقوب ومن اليهم من الانبياء الأقدمين ورفعوا تضرعاتهم ، ولكن الرعد القاصف مزق أصواتهم وغطى عليها ، وكلمة الله القدير العزيز ازالت حجة القاطنين : لقد احتمل سبحانه وتعالى طويلاً مكر ان الجيل من الذين كفروا بنعمته ، أما الآن فقد قرر هدم الهيكل كي يسرفه في مظاهر غضبه اولئك الذين تجاهلوه عندما كان يبغي عليهم نعماءه وعطفه وحبه . ولما فشل هؤلاء الأنبياء في ضراعتهم تقدم الأنبياء المرسلون كموسى وصموئيل وإيليا واليشع ، اولئك الذين جرت على ألسنتهم كلمة الله وعبروا عن افكاره ، فرفعوا رجاءهم الحار ولكن الله لم يصغ اليهم ورددت الرياح الى الخلف الكلمات التي تلفظوا بها . وكان البرق يشتد قوة وعنفاً والنار تأهب لتلتهم الهيكل

وكان الصالحون قد حارت عزائمهم ، وكانت أرواحهم الذليلة ترتجف عاجزة أمام الله . ولزموا الصمت مخافة ان يتحدوا غضبه . وعندما سكتت جميع الاصوات على الأرض مرتجفة ، تقدمت «راحيل» أم بني اسرائيل اذ اجتزأت وحدها على ان تفلت من بطش غضبه . فقد نامت هي ايضاً من قبرها التي بلدة «راماح» صوت غضب الله فجرت الدموع من عينيها حين فكرت بمصير أحفادها ثم تسلحت بإرادتها وتقدمت نحو غير المنظور وجثت أمامه وبسطت يديها ورفعت اليه هذه الكلمات :

« اللهم أيها العزيز القدير ، ان قلبي ايرتعد حين أخاطبك ، ولكن لماذا ينحني قلبي اذا كان عليه أن يضطرب امام غضبك ؟ ولماذا أعطيتني شعور اذا كانوا لا يستطيعان ان تقدرا في صوتهما الا عن الخوف ؟ اني أخشاك ولكني اتقدم اليك بنداء حار بدم الحب . ان المحنة التي وقع فيها ابنائي تدعني لأرفع صوتي المتواضع الى عرشك السرمدية . انك لم تمنحني الذكاء ولا المحاجة فلا أجد شيئاً يهديء من ثورة غضبك ، غير أن أتحدث اليك عن نفسي أنا التي عرفت في بعض أيام حياتي كيف أكظم غيظي . انك لا تبك عليم بما سأقوله لك قبل ان أتلفظ به ، لأن كل كلمة كائنة فيك قبل ان تصير صوتاً تتلفظ به شفة بشرية ، وأنت تعرف كل حركة قبل ان تبدو على يد مخلوق . ولكني أضرع اليك ان تصغي وتصغي الي أنا خطاة الهالكين . »

ونكست راحيل رأسها بعد ان تلفظت بهذه الكلمات . ولكن الله تعالى رأى وجهها ودموعها فأمسك غضبه ليصغي الى المرأة التي تتألم

واذا أصغى الله في تعاونه الى نحيب ما ، خلت الأجواء ، وتوقف الزمان عن سيره ، وسكتت الرياح ، واختنق الرعد ، ولم ترتجف الحياة ، ولم تعاود العصافير طيرانها ، ولم تخرج بعد ذلك نسمة من فم أحد . أما الساعات فقد أصبحت خرساً ، والملائكة كأنما جمدوا ، لأن انتظار الله يوقف كل نفس ، ويخفت كل ركز في السماء . فالشمس قبلها تجمد والقمر يلزم السكون وجميع الأنهار تشاطر انتظاره وتتوقف عن الميل

وكان القوم على الارض يخفون حيث يجدون ملجأ جاعلين ضراعات « راحيل » في سبيلهم والتفات الله الى كلامها . والناس يجهلون عادةً ما يجري في السماء ، فلم يفطنوا الاَّ لأمر واحد وهو ان الزوبعة هدأت فجأة . على أنهم حين عاد اليهم الأمل ورفعوا أعينهم الى السماء وجدوا أنها لا تزال ملبدة بغيوم أشد ظلاماً من القبور ، وأنها لا تزال تنذر بويل شديد بالرغم من صمتها ، فعاودهم الرجل وأحسوا بأن هذا الصمت يحيط بهم كالكفن

أما « راحيل » فقد شعرت بأن الله قد أصغى اليها فرفعت رحيبها المبلل بالدمع ووجدت في قلبها المقدرة على الكلام بالرغم من خوفها فقالت : —

« تعلم يا ألهي أني ابنة « لابان » ، واني كنت راعية في بلاد « حاران » تحرس غنم والدي طوعاً لأوامره »

« ومهما كنت أردُّ الماء مع الغنم ، وكانت الخادمات عاجزات عن تحريك الحجر العظيم الذي يغطي فتحة البئر ، جاء ما شاب غريب فأعانها وأدهشها بقوة ساعديه . وكان ذلك الشاب « يعقوب » الذي أرسلتهُ لنا ، وهو ابن أخت أبي . فلما ذكر لي ابيهُ استصحبتهُ الى منزلنا . ولم ينقض على تعارفنا ساعة من الزمان حتى كانت عيناه تنقدان ، وحتى شعر كل واحد منا بظامئ نحو الآخر . كنت استيقظ في الليل لأفكر فيه . ترى اللهمَّ إني لا استحي من الدم الذي كان يفيض في عروقي ، ألست أنت الذي خلقت فينا هذه الأعجوبة ؟ ألست أنت الذي أوقدت في قلوبنا جذوة الحب ؟ أنت يا ألهي وحدك الذي ثبتَّ ان تقدم العذراء نفسها للرجل ، وان تلتقي العيون والأجسام فتتصل في ارق وحرارة . لذلك لم تقاوم الجذوة التي اتقدت فينا وبعقوب ، منذ يوم الأول الذي تقابلنا فيه على الزواج

ولكن والدي « لابان » ، كما تعرفهُ ، رجل شديد الوطأة ، قلبهُ قاس كالارض التي حرثها ، قاس كبقرون الثيران التي استبدها . وعندما أخبره يعقوب رغبته في الزواج بي شاء ان يجرب مواهبه ليعرف من هو ، كما يريده ، ذو مثابرة على العمل وصبر في الحياة . فاشترط عليه ان يعمل في خدمته سبع سنوات ليبرهن على انهُ أهل لأكون زوجة له . وعند هذا الشرط سرت في جسمي رعشة كما ان دم « يعقوب » جمد في عروقه ، ورأينا ان فترة الانتظار طويلة لانهاية لها . إني أعرف ان سبع سنوات كقطرة ماء في بحور أبديتك ، او طرفة عين من نظرك السرمدي لأن الزمان يجري كأنهُ لا نهاية له . ولكن اللهمَّ انظر الى قصر حياتنا ، سبع سنوات تمثل عشر عمرنا لأنه لا تكاد عيناه تتفحصان لتورك القدس حتى تدركهما ضعفة الموت . حياتنا تجري سريعة كالنهر في فصل الربيع ، ولا تستطيع الأمواه المتحدرة ان تعود الى نبعها الذي صدرت منه . لذلك ظهرت لنا هذه السنوات السبع كأنها الأبد الذي لا يحد . سبع سنوات نظل فيها مفترقين بينما جسمانا المتقاربان ينتظر أحدهما الآخر ، وشفاهنا تجف في انتظار القبلات

« على ان يعقوب وفي بالشرط ، واستلمت لمشيئة والدي . وشدَّ كل واحد منا على قلبه ليرغمه على الطاعة والصبر »

« ما أشد وطأة هذا الصبر على مخلوقتيك لأنك جعلت فيهما قلباً ينبض بالحياة وغرست فيهما روحاً يخيفها قصر الحياة وفوات العمر . اللهمَّ انا نعرف ان الربيع قريب من الخريف ، وان صيف الحياة قصير المدى ، فلا غرو اذا اضطربت دماؤنا لطول الانتظار ، وشعرنا برغبة ملحة في ان نعمل أنى ما نشتهيه ونتم بالزمان الذي يمر مسرعاً . كيف نتعلم الانتظار ونحن نعرف ان كل يوم يمر يدنينا من الشيخوخة ، او نستطيع الصبر بينما نرى حياتنا تخبو كل ليلة ، وكيف لا نحترق بينما نرى النار تلتهم الزمان وتفنيه شيئاً فشيئاً ، ثم كيف لا نسرع بينما الفرصة تلاحق بنا يطاردنا . بارغم من ذلك فاننا استطعنا ان نتغلب على نفسينا وان نقاوم حبنا ، بينما كل يوم يمضي كأنه الف يوم أمام باكورة نشعر به من حنين وحب . على أنهُ حين انقضت هذه السنوات السبع حسبناها كأنها يوم واحد . اللهمَّ هكذا انتظرت يعقوب الذي كان يحبني

« عند نهاية الموعد ذهبتُ فريحة الى والدي «لابان» أسألهُ أن يمن بيدي ليزوجني ولكنه أبى أن ينظر الى عيني وسروري فأظلم جبينه وظل صامتاً ثم أمرني ان اذهب فأنظر «ليا» »

« اللهمَّ انك تعلم ان « ليا » أكبر مني لأنها خرجت من بطن امه وتقدمتني الى بدنا بدقائق وقد أعطيتها وجهاً غير مليح لا يلفت اليه انتظار الرجال . وكان يحزنها أن أحداً لا يرغب في الزواج منها . وكان حزنها وليد أخلاقها فقد جعلاها حيية الى حد . ولكنها كانت تحبني والدي ان أفديها ثم أخرجني من حضرته عندما دخلت عليه ، شعرت انها تشكرني بسعادتي وانها تخفي شيئاً عني . فاختبأت بحيث أسمع ما دار بينهما من حديث . سمعت أبي يقول لها :

« اسمعي يا « ليا » . لقد انقضت السنوات السبع التي « اشترطت على ابن اخي يعقوب » وان يعمل اثناءها في خدمتي لأزوجهُ من « راحيل » ، ولكني لا أريد ان أزوجك قبل الزواج من أختك « اذ ماذا يحدث لو أن الصغيرة غادرت المنزل قبل الكبيرة . ظلت الكبيرة مقيدة « بلا زواج « عرضة لسخرية الخدم . إن أمراً كهذا لا يرضي الله لأنهُ حرم ويحرم ظلم احد . خلقنا الله « في بدء الخلق وفي خير الأرض لكي نملأ الأرض بالمخلوقات حتى يعمرها الى مستقبل الوفاً « مؤلفة يسجدون باسمه ، انهُ لا يريد ان تظل أرضه غامرة وان تفنى المخلوقات التي تفيض فيها « الحياة بدون ذرية ونسل . ليس عندي غنمة أو بقرة عاقر ، فكيف أتيح أن تظل ابنتي « بكراً وان تعيش في الذل والعار . فاستعدي يا « ليا » لكي تلبسي ثياب العرس واجتهدي « بأن تخفي به جيداً وجهك حتى لا يعرفك « يعقوب » عندما أقودك اليه بدلاً من راحيل »

« هكذا تحدث والدي الى « ليا » التي كانت تضطرب وجلاً ولا تجيب جواباً . وعندما سمعت هذا الحديث الذي خيب آمالي شعرت بثار انتفض تتقد في قلبي ضد ابي « لابان » واختي « ليا »

أغفر لي اللهمَّ ولكن أرجو أن تذكر أن « يعقوب » لم يخدم سبع سنوات إلاَّ لأجلي ، وانها تمَّتا سبع سنوات كاملة كنا فيها متفصلين ، ثم وجدت ان من أحبه أكثر من نفسي ، سيضم بين ذراعيه اختي بدلاً مني . فطار عقلي وثرت على والدي كما ثار أولادي عليك ، أنت ايوم الحيُّ القيوم . أنت اللهمَّ الذي جعلتنا نضطرم غضباً عندما تألم نظلم بنحق بنا . لذلك ذهبت سرًّا الى « يعقوب » وهمست في أذنه أن يأخذ حذره لأن والدي سوف يخدعه ، وانهُ سيبدلني بالأخرى . ولكي أتبيَّ من الوقوع في الشرك المنصوب أعطيته علامة ليعرفني بها وهي اني ، إذا كنت أنا المزفوفة اليه ، أقبله ثلاثاً في حينه قبل ان أدخل خيمته

« عند ما جاء المساء قدَّم والدي نقاب العروس لاختي فأسدلته على وجهها حتى لا يتبينه يعقوب . أما أنا فأدخلني والدي أحد الأعراء حتى لا يراني الخدم فيخبروا « يعقوب » بما دبره

« قبعت في مكاني كأني عصفور من عصافير الليل . وكنت كلما مرت ساعات الليل شعرت بالضيقة تشتد في نفسي فخي حبَّبني اليَّ ان قلبي ينازعني صدري لشدة الألم لأنك تعرف يا الهي بأني كنت لا أستطيع الرضى بزواج اختي بيعقوب . وكنت أعض يدي بينما كانت الصنوج والطبول تضرب في الدار . وكان قلبي فريسة لألم وغيرة كأنهما أسدان ينهشانه

« وهكذا كنت أنتهم غيظي وأنا في عزلتي سجينة منسية . وكانت الظلمة التي سادت الغرفة تحكي الظلمة التي قامت في نفسي حين سمعت الباب يفتح ببطء . لقد كانت يا الهي اختي « ليا » التي خلست اليَّ سرًّا قبل ليلة العرس . لقد عرفتها من وقع قدميها ، ولكني أشفقت بوجهي عنها كأني لا أعرفها ، لأن قلبي لم يكن راضياً عنها . على أنها اقتربت مني ملاطفةً وداعبت بأصابعها شعري في رفق وحنان . وعندما رفعت نظري رأيت حدقتي عينيها تضطربان جزعاً ، وقد تكدر بريقهما

« أستطيع ان أقول يا الهي أني شعرت وتنذر بالشر يتغلب على نفسي ، واني أحسست بالسرور بسبب اضطرابها وحيرتها . و شبعت كما يشبع المنتقم حين لاحظت أن ذلك اليوم كان أيضاً في فمها مرَّ المذاق . ولكن المسكينة لم يداخلها شك فيما فاض به قلبي من السرور الشرير ألم نرضع من ثدي أم واحدة ، ألم تتبادل الحب منذ نعومة أظفارنا ، لقد جاءت إذن واثقة بمراضي وطوَّقت جيدي بذراعيها ، وكانت شفتاها تغرقان مضطربتين عند ما وجهت اليَّ الكلام بصوت حزين قائلة :

« ما العمل يا أختي « راحيل » إني أتألم كثيراً مما أبرمه والدي . لقد انتزع منك حبيبك « ليدفع به إليَّ . ولكي أشعر بخجل عظيم لأني سأخدع رجلاً سقيم النظرة مثله . فكيف « أجرؤ على أن أذهب اليه بينما هو ينتظرك ، وكيف أستطيع الزواج به ؟ أشعر أن رجلي « ثقيلان ، وأن قلبي ينصحني بأن لا أصل ، إني خائفة يا راحيل ، لأنهُ من المستحيل أن لا يعرفني « من النظرة الأولى ، وأي خجل يستولي عليَّ إذا طردني في الحال من منزله . سيحتقر

« الأطفال الصغار في الجيل الثالث ويقولون : كانت « لبنا » قبيحة المنظر فشاءت أن ترمي « بنفسها في أحضان رجل أبيها وطردها كما يطرد الكلب الجرب . فكيف العمل يا « راحيل » « ساعديني يا أختي العزيزة . هل أرضى بالمغامرة أم أعصى مشيئة والدي الشديد الوطأة . ماذا « أصنع كي لا يعرفني يعقوب ، أو كي لا يعرفني قبل الأوان لئلا يلحق العار بريئة . ساعديني « يا « راحيل » ، أضرع اليك باسم الله الغفور الرحيم »

« اللهم كانت ثورة غضبي لا تزال في كامل اضطرامها ، وكانت تتراوح في رأسي أفكار شريرة بالرغم من حبي لأختي . كنت أفرح باضطرابها فرحي بأكلة شهية . ولكنني عند ما سمعتها تتلفظ باسمك القدوس ، اسمك المقدس بين كل الأسماء ، عندما سمعتها تذكر رحيمك شعرت كأن شعاعاً من نار يخترقني ، وأن قلبي يتسع ، وان صلاحك العظيم ونبض كرمك يفيضان الى العالم من نفسي المظلمة . لأن من معجزاتك الخالدة أن تزول الحواجز التي أقامها بيننا وبين العالم عندما نرى غيرنا يتألم وعندما نشعر بحبه

« شعرت فجأة بأوجاع أختي كما لو كانت أوجاعي فلم أعد أفكر بنفسي ، وبرأيت أصغي الا الى استغاثتها فرثيت لشقائها وأشفقت عليها — أصغ جيداً يا الهي لأقوال عبدتك المخلوقة — لقد أشفقت عليها عندما رأيتها تذرف الدموع كما أذرفها أمامك اليوم ، أشفقت عليها عندما توسلت الي أن أرحمها كما تتوسل اليك اليوم شفتاي الخاطئتان الخائفتان منك الراجية بساتمها بالرغم من نفسي الغارمة أن تخدع يعقوب ، وأطلقتها على علاته لتعارف بيننا . وقلت لها أن سيئة تلافى في حينه قبل دخولها خيمته . وهكذا بألمي من حبي لك ، استطعت أن أتعاطى عن أختي ، التي كانت تتقد ناراً في نفسي كما استطعت أن أحنو بعقوب وحبي له

« أصغت « لبنا » لحديثي ثم لم تستطع أن تضبط خواطرها فتراميت على قدمي تقبل يدي وأذيال ثوبي . هكذا جعلت مخلوقاتك كلها تطيع لهم دليل على صلاحك المتقدم لتسابل التواضع عليهم وتحركت قلوبهم مدفوعة بعوامل معرفة الجيل فرثت كل واحدة منا من ذراعي أختها تتبادل القبل وابتل خدا كل واحدة بدموع الأخرى . عادت « لبنا » الى خيمتها تطيعني ورضيت أن تذهب الى خيمة يعقوب . ولكنها عند ما أرادت النهوض عاودها الاضطراب فأطلت عيناها وارتجفت شفتاها وعلاها الاصفرار وقالت لي :

« أشكر لك يا أختي طيب معاملتك لي ، أشكرك وسوف أفعل كما أمرت ولكن ماذا أفعل « إذا لم يقم يعقوب في النفخ المنصوب له . تداركيني بنصائحك يا أختاه وأرشديني . قولي لي ماذا « أفعل إذا تحدث الي كما يتحدث اليك . هل أستطيع أن التزم الصمت عندما يخاطبني كما يتحدث الخطيب الى خطيبته ، إن هذا أمر محال لأنه إذا سمع صوتي أدرك حديثي له . فماذا أفعل « إذا كلمني ، استحلفك بالله الرحيم ان تسعفيني بحكمتك وشورتك »

« ومرة أخرى يا ألهي عندما تممت احتك المقدس شعرت كأن نوراً ملتهباً يخترقني فأخذت ما في قلبي من قسوة وفتحت نفسي للصلاح والرحمة وأشفقت عليها في محنتها . ومن جديد عشت قلبي المكلوم وقلت على عذابي . وكانت الرحمة قد جعلت مني شخصاً مستعداً لقبول كل التضحيات . فقلت لها :

« اطمئني يا « لبنا » واطرحي عنك الهموم ، فحبًّا بالله القيوم سأفعل ما يجب فعله كي لا يفهم يعقوب شيئاً قبل ان يعرفك . اصغي الي جيداً : بعد قليل سأدعي نفسي في خيمته قبل ان يقودك والدنا اليها وأقف في أحد أركانها المظلمة بالقرب من مضجعكما فاذا تحدث يعقوب أجيبه بدلاً منك فيسمع صوتي حين يرون شكوكه اذا كانت لديه شكوك تساوره فلا يتردد ان يضمك بين ذراعيه . . . أتفهمين ذلك يا « لبنا » مدفوعة بالحب الذي ترادلناه منذ طفولتنا ، ومدفوعة كذلك بحب الله الحي الرحيم الذي توسلت اليه لكي يشمل برحمته أبنائي وأحفادي عندما يحتاجون بدورهم إلى أن يتوسلوا باسمه المقدس

« فاستلقت أختي من جديد وقبلت شفتي . وكانت قد تبدلت حالتها فكأن امرأة أخرى حلت محل تلك التي ارتمت على قدمي . وذهبت بعد ذلك مطمئنة وتقدمت الى يعقوب بخجلة بنفسها . أما أنا فوثبت بسرعة وعدت بي وتسللت سراً الى خيمة يعقوب واختبأت بالقرب من السرير . سمعت بعد قليل صوت انسراح المقرحة التي كانت تدق خطوات العروسين . فقد وصلا الى باب الخيمة ، وبعد ان دخلا تردد يعقوب قليلاً منتظراً اشارة التعارف المتواضع عليها بيننا . وعندئذ قلت « لبنا » بلهجة تشبه لهجتي . فدخل يعقوب وجلس على حافة السرير وقدماه تلامسان السرير من الخارج . وقبل ان ينضم اليه سألته : « هل ذاقت حنطة الحب حلاوة التي اشعرتها بالمرارة » فكانت التجربة قاسية حقاً كما تعرف ذلك يا مولاي يعقوب . ولكني استمعت الى اجابة عربي وان أتهم في أنه كان افراحه مضاعفاً مغرماً في جسمي ، وقلت : « هل ازدادت حبك يا يعقوب » فاطمأن الى كلماتي وعانقني أخي مواصلاً بكل ما في جسده من قوة . اللهم ان لهذا العناق خرق كما ان حد الخنجر قطع ، فانت تعلم كيف سمعت بالسرير ينحني بثقل جسمين . كدت أصرخ بملء حنجرتي ، ولكني كنت كأني على جمر الغضى لأني أعرف أن يعقوب لا يبدي عنده حرارة في حب « لبنا » إلا لانه يتوهم اني أنا التي يضمها بين ذراعيه . أنا التي كنت اشتهيه بكل حرارة نفسي . اذكر يا مولاي الخادم في كل مكان ، تلك الليلة التي قضيتها مقربة ، وقد أدميت ركبتاي وقلبي ، مرغمة أن أسمع ما يجري بينهما ، ذاكرة اني محرومة من كل هذا الحب الذي كان يعقوب يغمر به « لبنا » والذي يجب ان يكون من نصيبي . فقد ظللت راكعة بقربهما سبع ساعات ، بل سبع أبديات ، ممسكة انفاسي ، مخمدة الأصوات التي كانت تتردد في صدري ، مصارعة نفسي كما صارع يعقوب فيما مضى ملاكك . أنك تعلم ان هذه الساعات

السبع خلتها أطول من سنوات الانتظار السبع التي أرادها والدي . على أني لم أكن لأستطيع احتمال تلك الليلة الرائعة ، ولم أكن لأستطيع احتمال الألم كالتي قاسيتها فيما ، لو لم أذكر صلتها اسمك المقدس ولو لم تتداركني فكرة صبرك الطويل الذي لا ينفي فتشد في عزيمتي وتقويني

« هذا ما فعلته اللهم » ، وهو العمل الوحيد الذي افتخر به في حياتي على هذه الارض لأني تشبهت بك في صبرك ورحمتك ، لان احزان نفسي كانت تفوق طاقة البشر . لا أدري هل أجريت على امرأة عجة حائلة كالتي عرفتها في تلك الليلة المفجعة التي كانت أطول الليالي على أني ثبت لها . وعندما سمعت صوت صياح الديك نهضت من مكاني منهوكة الجسم بينما كانا هما ايضاً قد استسلما للتعب والنوم . فأسرعت نحو منزل والدي لان الخيلة صارت قريبة الانكشاف . وكانت أسناني تصطك عند ما أخذت أفكر فيما قد يحدث وتتشنج . ولم أكد أستلقي على مضجعي حتى سمعت صياح ذلك الذي خدع وشتائمه . وقد جاء في الاقتفاء سالثور الذابح حملاً بيده فأسرع يضرب به « لابان » والدي الشيخ الذي سُمق في مكانه خوفاً ورفع شعره رعباً من صياحك . وعند ما سمعت النداء باسمك المقدس تشجعت وسرعت فلاقاه يعقوب لأحرر خدمه من يده . وكان الغضب قد أعماه ، فند ما رآني ، ابنة التي ساعدت على خدعه ، أندفع يشتمني ضارباً حتى أرعبني أرضاً . ولكنني لم أشك لانني كنت أعرف أن غضبه يزول على حبه العظيم . وعرفت أنني وكان في ثورته قد رفع الناس ليهوى بها علي ، فرأيته تناني يا إلهي لما تقدمت أن عرشك . لقد شاكيته لانني اذا كنت تدخرته لأياماً حرماً عظيماً فقد كنت أعرف كذلك أن غضبه

« وعندما رآني يعقوب مرتمية على الارض قدامه أتوجه معطفة بسيف مصر قد ابتسم بارتياح فهوت من يديه الناس التي رفعها ليضربني بها واحنى علي وقبلني قبلة حنان وهو تنتصر رحمته علي بل شملت والدي «لابان» فغفر له جنايتي ، وما يغفر له لشدة حبه . واتفق مع والدي على خدمته سبع سنوات أخرى أخذني بعدها زوجاً ثانية فرحت به أيما فرح غذيتهم بلبن جسمي ولا أزال بك ، أولادي أوصيتهم أن يرجعوا الى جدهم لدى حاجتهم الى الكبد الدبك ، اللهم أيها الشفيق الرحيم بسبع رحمتك أشفه الديك اليوم في هذه الساعة كما فعلت كما فعلت بيعقوب . دع قاس غضبك يسقط من يده ويدد غيوم غضبك ، مهما كان رحيما لأن « راحيل » كانت رحيمة . اظهر صبرك لأني برهنت عن صبري ، واسبق الدينا بسبعة ترفق اللهم بأبنائي وبناتي ، وجنب أورشليم الدمار »

كانت « راحيل » قد رفعت صوتها حتى كاد يخترق السبع الطباق . ولكنها بعد ابتهالها الصاعدة من قلبها خارت قواها فسقطت ساجدة وحنت رأسها الى الارض فتموج شعرها على جسمها المرتجف كأنه موج سيل أسود . وكانت « راحيل » في سجدتها ترتعد فرائصها في انتظار جواب الله

ولكن الله ظل صامتاً ، ولا شيء أشد هولاً في السماء وعلى الارض من سكوت الله . فهو دائم لصمت وقد الزمن ، وخلا الفضاء ، واختطف الهواء بالذين فصار شيئاً واحداً ، وشاع في فضاء اللانهاية فراغ كالذي كان قبل الخليقة . عندئذٍ تقف كل حركة ، فلا تجري الأنهار ، ولا تزهر الأشجار ، ولا يتحرك البحر اذا خلا من صوت الله الذي يهبه نفسه لا تستطيع اذن بشريةٌ احيان تحرّكات حد الصمت ، ولا يستطيع قلب بشريٌّ مقاومة ضغط هذا الفراغ الذي لا يوجد فيه غير الله . بل الله نفسهُ ، وهو ينبوع كل حياة ، لا يكون الاله الحي ما دام صامتاً .

ولم تكن راحيل على قوة صبرها تستطيع أن تحتمل صمت الله أمام تضرعاتها في محنتها الصارخة . فرفعت عينيها مرة أخرى نحو غير المنظور وبسطت يديها نحو السماء وألقت بهذه الكلمات الثائرة في ثورة غضب

« أنت تسخر يا إلهي العليم بكل شيء ؟ ألم تفهم قولي أنت الذي لا تخفى عليك خافية ، أم تحب أن أصرخ عاراتي ، أنا خادمتك الجاهلة . أصغ إليَّ يا الله ذا السمع التقيّ . عرفتُ أنا الغيرة أيضاً الغيرة عندما صاحت بيعقوب أختي كما تعرفها أنت اليوم عند ما تزوج أبنائي بحرقون البخور لآلهة غريبة . ولكنني أنا المرأة الضعيفة عرفت كيف أتمالك غضبي ، كنت وحيدة حبيبة لك أنت الذي كنت أؤمن بأنهُ رؤوف رحيم . لقد أشفقت عليَّ « ليا » وأشفق يعقوب عليَّ ، فلا تنسَ ذلك يا الله . نحن الذين ليس سوى أشياء فانين تغلبنا على شر الغيرة . أما أنت أيها الاله القدير أنت الذي خلقت كل شيء وسوَّيتهُ ، أنت أون كل شيء وآخره ، أنت أعظم العظماء ، بينما نحن لسنا سوى قطرات ماء في محيطك ، ألا تريد ان تعرف الرحمة سبيلاً اليك ؟ اعلم ان أبنائي شعب شرس معاند ، وانهم كثيراً ما يثورون على القدس الذي فرضته عليهم . ولكنك انت العادل الحكيم . أفلا يجب ان يكون صبرك أعظم من كبريائهم ، ورحمتك أبعد من اخطائهم . أليس من الجائز يا الهي ان توجد مخلوقة تستطيع ان تجعلك تنحني أمام ملائكتك ، فيقال : عاشت مرة على وجه الارض امرأة صغيرة تدعى « راحيل » عرفت كيف تكسر غضب إلهها رب جميع القوى والأشياء — يخضع لثورة غضبه كما يخضع الخادم لسيده . كلا يا الهي . ان هذا مستحيل ، لأنه اذا كان الأمر كذلك لم تعد رحمتك لا نهاية لها ، وزالت عنك صفة اللانهاية . بل زالت عنك صفة الألوهية . أجل ، بعد ذلك الاله الذي تمثلته في أحزاني ، ذلك الذي سمعت صوته في صراخ الحق المفجع ، صرت أنت غريباً . أنه غضب ، أنه قاس ، أنه انتقام . أما أنا « راحيل » ، أنا التي لم أحدثه غير أنه محبة وصلاح ، أنا « راحيل » أجحدك أمام ملائكتك انهم يستطيعون أن يخفضوا رؤوسهم ، وأن يحذو مختاروك وأنبياؤك حذوهم . ولكن انظر انا « راحيل » ، الأم التي لا أحني رأسي وأظل منتصبة أمامك ، وأتقدم اليك قبل أن تنتقص من ابنائي وأنبيك بأن أقوالك تعارض مع مشيتك ، وان كلمات الغضب التي ينطق بها فمك

تتعارض مع قلبك . احكم اذاً يا لمي بينك وبين أقوالك . فاذا كنت حقاً اتقه الغضب الذي تحذر به فلزمي في ظلمات الجحيم مع ابنائي لأني لا أريد أن أراك على هذا الوجه . اني أكره شدة نقمة غيرتك . أما اذا كنت اتقه الرحمة الذي أحبته منذ الأزل والذي عشت وفقاً لتعاليمه فاظهر بهذه الصفة، وأنر وجهي بنور سلاحك ، وجنّب أولادي والمدينة المقدسة الهلاك »

***

عندما قذفت راحيل نحو السماء بهذه العبارات المرّة خالتها قواها من جديد فهوت على ركبتيها ورمت بأسها الى الوراء في انتظار جواب الملي

وكان الهول قد أخذ مأخذه من الأنبياء والشيوخ فابتعدوا عنها لأنهم ظنوا أن براءة سيصعق الكافرة التي تجرأت على مخاصمة الله . ثم أخذوا يجولون بأبصارهم في الفضاء في حيرة ووجل ولكنهم لم تظهر أية إشارة في السماء .

وفي أثناء هذا أخذ الملائكة الذين أخفوا رؤوسهم أمام غضب الله ، ينظرون من خلال أجنحتهم في دهشة وانتظار الى هذه المعركة التي تجرأت لتسمح ان يدخلوا النضال في اما تعالى على كل شيء قدير ، فرأوا فجأة نوراً يشع على وجه « راحيل » ويضيء حيثما كان كل جسم يسطع نوراً ، وكانت دموع الندامة على خدي هذه الأم تعيد كأنها الندى الصباح . فالملائكة بهذه الظاهرة ان إلهه قد نظر الى وجه « راحيل » وان كل شيء عاد فيحمل الله نوراً ، ورتلوا بتشكر إلى الله بحب تلك التي كانوا يرونه الآن مدفوعة بشدة إيمانها الى صعيد أكثر من حبه لأولئك الذين خضعوا في تقدي واستسلام . فلزان حوف الملائكة وقد انتظارهم مطمئنين ولاحظوا أن مجرد الله قد أعاد الضياء ووحّد الى الأشياء جمالها . ان زوبعة ابتسامته المطمئنة تفكر على الانهيار الفضاء . فبسط الملائكة اجنحتهم في حفيف لصحبه تقد الهواء الفضي فانبثق من هذا حفيف موسيقي ناعمة في بياض السماوات ، وصار الضياء منبثقاً من وجه الله فيعم كل شيء لا يغلب مياه . وانتشر في الفضاء الزرقاء ، وراقت لها منبعثة أصوات الملائكة ، الفرق والذين ، يوسف بعد عهد الأرض ، في هذا الصحراء الى هذه عطر ينبعث من لمسة مقدسة

أما الناس الذين على الأرض ، والذين يفتحون ابداً جاهلين لأصوات الله ، فانهم لم يفتطنوا الى ما يجري في السماء . فقد ظلوا منذرين بأكفانهم ، ساجدين ، حافين رؤوسهم الى الأرض في حزن وألم . وفجأة شعروا ، الواحد بعد الآخر ، كأن نسمات الربيع تهب فوق رؤوسهم فرفعوا النظارة والشك ملأ نفوسهم وبهتوا لما رأوه . انهم رأوا على جدار الغيوم المتصدع قوس قزح بديع جاء يحمل الى أممهم « راحيل » بألوانه السبعة وبريق لمعانه النبأ السار يبشرها بأنهم قد اصطلحوا مع الله